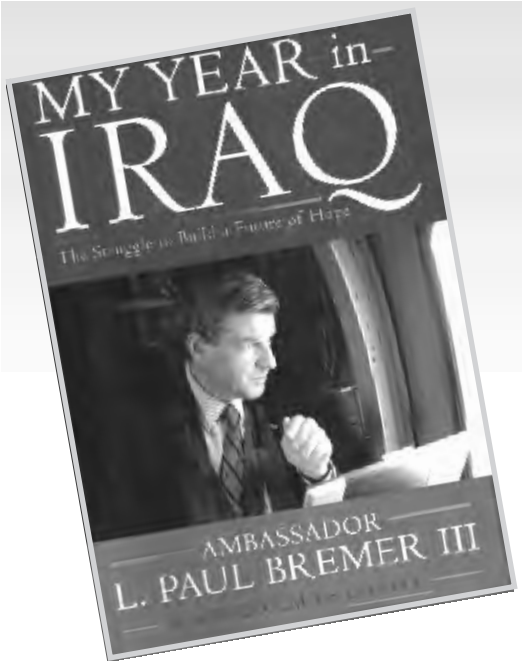

كتاب بول بريمر الصادر حديثاً حول تجربة عمله في العراق

سنتي في العراق

الصراع لبناء مستقبل من أمل

تأليف/ بول بريمر
ترجمة /د. عابد اسماعيل

(الحلقة الخامسة)

> كان البنتاغون قد توقّع أيضاً أن الأغلبية الساحقة من الجيش العراقي الذي يبلغ قوامه (٧١٥٠٠٠) ألف جندي، منهم ٤٠٠٠٠٠ ألف من المجنّدين الشيعة، سوف يلقون أسلحتهم ويستسلمون جماعياً. ستبقى الوحدات سليمة، وبالتالي يمكن استخدامها في مشاريع طموحة لإعادة الإعمار، ويُدفَعُ لها رواتب ثابتة للمعيشة. كان الجنرال فرانكس قد أمر القوات العراقية، في العاشر من نيسان، في البقاء بالزي العسكري، طوال الوقت. وأن يحافظوا على التماسك، وعلى النظام والانضباط داخل وحداتهم.

بول بريمر يحيي فريق لاعبي كرة قدم عراقيين صغار

لكنّ هذه الخطط لم تضع في الحسبان الواقع القاسي للحياة بالنسبة للمجنّدين الشيعة، الذين تحمّلوا ضنك المعيشة، والرواتب الرمزية، والمعاملة الشنيعة، والإعدامات العشوائية على يد الضباط، الذين كان معظمهم من السنّة. هؤلاء الجنود لم يكونوا يضمروا أي ولاء لقادتهم المكروهين، وكانت لديهم حوافز ضئيلة للحفاظ على تماسك الوحدات. وتحت قصف مستمر ومركز من أسلحة عالية الدقة، لم تخطئ أهدافها، في أحلك الليالي، أو خلال أقسى هبوب لريح الشمال، تنكّبوا بنادقهم، وعادوا إلى بيوتهم ومزارعهم ومدنهم في كلّ أرجاء العراق. بعد التحرير، لم تسلم أو تبقى وحدة عسكرية عراقية واحدة قائمة في مكانها، في أي مكان من البلاد. ومن ثمّ، وكما أكّدت القيادة المركزية الأمريكية، بعد سقوط بغداد، لم يعد للجيش العراقي من وجود كقوة منظّمة. وبلغة البنتاغون، كان الجيش "قد حلّ نفسه."

وبالتالي لم يكن لجي غارنر أو فريقه الصغير مشكلة نازحين يتطلب حلّها، ولا قوة راغبة من الجنود العراقيين يمكن تسخيرها في مشاريع إعادة البناء، كما كان قد توقع كثيرون في البنتاغون. جميع وزراء الحكومة، ونواب الوزراء، وآلاف من قادة البعث، فرّوا هم، أيضاً. وبالتالي واجه غارنر فراغ سلطة سياسياً، ونقصاً في القادة العراقيين من ذوي الخبرة، بدءاً من مخاتير القرى إلى رؤساء البلديات، إلى المحافظين في وزارات بغداد.

في خاطري، وطوال ذلك الصباح الأول في بغداد، كانت تجول تلك العبارة، التي لطالما اقتُبست مراراً، عن القائد الميداني البروسي، المارشال فون مولتيك، والتي تقول، "ما من خطة معركة تستطيع أن تصمد بعد التماس الأول مع العدو." وحيث كنّا نراجع التقارير، قلتُ في نفسي، ما من خطة مدنية تستطيع أن تصمد بعد التماس الأول مع الواقع.

لفت هيوم انتباهي إلى معضلة أخرى كان قد لاحظها من خلال تجربته الطويلة في المنطقة.

حين حرر قادة التحالف العسكريون المدن العراقية، قام ضباط الشؤون المدنية، وقليل منهم يتحدثون العربية أو يفهمون دينامية المجتمع العراقي، باستعجال تجميع مستشاري القرى أو تعيين رؤساء البلديات وحتى المحافظين. كان هذا بمثابة استجابة عقلانية لحاجة قواتنا العسكرية بإقامة "نقاط اتصال" مع السكّان المحليين.

"إنّ مجرّد النظر إليها من الخارج،" قال هيوم،"يوحي بأن العديد من القادة اتخذوا هذه القرارات من دون اعتبار للنتائج السياسية. بدا الأمر وكأنهم يتصرفون من دون معرفة نقدية لهؤلاء الناس. ستكون معجزة أن لا ينتهي بنا المطاف مع زمرة من البعثيين والمجرمين، أو كلاهما."

معظم أولئك الذين يجلسون حول الطاولات من أجل اجتماع الساعة السابعة بدوا متعبين بوضوح. علامات الأرق كانت بادية فوق ذقونهم غير الحليقة، وعيونهم السود الغائرة.

ولمست أيضاً بعض الترقّب. كان (مكتب إعادة الإعمار والمساعدة الإنسانية) بقيادة جي غارنر، غير رسمي نسبياً، ويفتقر لاجتماعات نظامية مبرمجة، لأن الموظفين، عادةً، مبعثرون، يواجهون الأزمات المضاعفة التي تفرضها المستجدّات. كان جي شخصاً محبباً، سلس التعامل، هو الرجل العسكري الكبير، ولديه العديد من الأصدقاء الأوفياء في هذه الغرفة. كنت ببساطة أحلّ محلّه. كان أمراً طبيعياً أن تريد جماعته التعرّف عليّ أولاً قبل أن تغيّر ولاءها. هذا عدل في حد ذاته. غير أنّ جزءاً جوهرياً من عملي هو خلق الانضباط، وزرع الحسّ بغاية ما، في منظمة خائبة، قبل التخطيط لإبحار طويل.

استمعتُ إلى تقارير الوضع الصباحي، ومن ثمّ أعلنتُ أنني أريد أن أركز ما تبقى من الجلسة على المشاكل الاقتصادية التي يعاني منها المواطن العراقي العادي.

"بالإضافة إلى الأمن، يجب علينا أن نتصدى لقضايا معيشية. يجب أن يكون هذا من أولوياتنا المباشرة،" قلتُ لهم. "بدءاً من القضايا الكبيرة مثل ماذا نفعل بالإعانات المالية، الشركات التي تملكها الحكومة، والعملة، نزولاً إلى سعر وتوفّر الأرز والحبوب ...من"

" ...غاز الطبخ،" قاطعني مستشارنا للنفط غاري فولغر، مكملاً القائمة من السلع الأساسية المنزلية التي هي في شحّ، الآن."إنّ مشكلة الغاز سيئة، بل وتزداد سوءاً." فيما يتعلق باقتصاد البعثيين الموجّه، حيث احتكارية الدولة تتحكم بتوزيع غاز الطبخ والبنزين، فالأسعار التي تدعمها الحكومة كانت متدنية بشكل زائف. لقد ورثنا أزمة بنيوية.

وخلف النقص الوشيك للبنزين ولغاز الطبخ، كانت توجد مشكلة أعمق. المصافي العراقية، التي كانت تنتج وقوداً من كل الأنواع، بما في ذلك الغاز، كانت مجرد قطع أثرية بائدة قبل الحرب- لأنّ صدّام حرمها من التمويل المناسب. كان العراق قادراً على تبادل النفط الخام مع غاز الطبخ، لكننا الآن نواجه نقصاً يومياً يصل إلى حوالي مئة وخمسين شاحنة محمّلة.

خلال أسبوعين من الآن سوف ينفد في البلاد غاز الطبخ.

لقد قال لي مستشاري أن مصافي العراق الثلاثة الرئيسية عتيقة جداً، وتفتقر للصيانة، وبسبب سياسة صدام الاقتصادية، فإن هذا المكوّن الحيوي في صناعة الطاقة يمكن أن يتوقف عن العمل في وقت قريب.

غير أنّ الوقود لم يكن مشكلتنا الوحيدة. قال مستشاري في وزارة المالية، دافيد نَمي، إننا نواجه "مشكلة ميزانية كبرى" إذا لم نفعّل ريعاً ما. وأوضح إنّ ٩٨ بالمئة من ميزانية الدولة تأتي من عائدات النفط، وهذه لا يمكن الحصول عليها الآن في ظل العقوبات المفروضة، التي لا تزال قائمة، والتي وضعتها الأمم المتحدة، بعد حرب الخليج عام ١٩٩١، هذا الإجراء كان يهدف إلى منع صدام حسين من استخدام مبيعات النفط لإعادة بناء جيشه أو للحصول على أسلحة دمار شامل.

في عام ١٩٩٦، وضعت الأمم المتحدة برنامج النفط مقابل الغذاء، والذي سمح بمبيعات محدودة للنفط. أما العائدات، التي وضعت في حسابات تحت إشراف الأمم المتحدة، فكان من المفترض أن تُستخدم لشراء الطعام والأدوية. غير أنّ البرنامج لحق به الفساد، وكانت هناك تقارير تقول بأن بعض البلدان، بما في ذلك فرنسا وروسيا، كانت متورّطة بتعاملات برنامج النفط مقابل الغذاء. صدّام نفسه لم يكتف بحصّته فقط، بل استخدم الكثير من التمويل من أجل سورة مسعورة للبناء في كل أنحاء البلاد، مشيداً خمسين قصراً. هذا ما أطلق عليه الجنرال فرانكس "برنامج النفط مقابل القصور."

مشكلة أخرى متعلقة بشراء القمح العراقي ومحصول الشعير، الذي كانت تشتريه وزارة التجارة في عهد صدام بأسعار زهيدة. إن شراء المحصول سوف يكلّفنا ما يتجاوز ١٣٠ مليون دولار، وفقاً للسفيرة روبين رافايل، مستشارتنا في وزارة التجارة.

سألتُ "من أين لنا أن نحصل على ذلك؟".

أشارت إلى أنه يمكننا الحصول عليه من منظمة الغذاء الدولية التابعة للأمم المتحدة. "إنهم يجلسون على حوالي خمسة مليارات دولار من تمويل برنامج النفط مقابل الغذاء،" وأخبرتني "غير أنّ الأمم المتحدة كانت قلقة بشأن الأمن عند نقاط الاستلام. قلت لروبين أن تنظّم بعض المعدّات، وسوف نجري اتصالاً مع رئيس بعثة الأمم المتحدة.

خلال الجلسة، علمتُ أيضاً أن وزارة التربية كانت تخطط لانتخابات لإدارة جامعة بغداد في اليوم التالي، لتسمح للعام الدراسي بأن ينتهي في وقته. كان فريقنا التربوي قلقاً من أن المنظمة الأفضل تنظيماً في الجامعة ستكون من البعثيين. طلبت منهم أن يدعوا العملية الانتخابية تأخذ مجراها، لكننا سنعتبر الجهة الفائزة بالانتخابات "انتقالية"، إلى حين تتاح لنا فرصة التدقيق بها.

بعد مضي ساعة تقريباً، أنهيت الاجتماع. كنت قد أوصلتُ رسالتي: يجب أن يصبح فريق العمل أكثر حزماً، وأن يركّز على الحلول العملية، وأن لا ينخرط في سفسطة متشائمة. من السهل دائماً أن يكون المرءُ سلبياً، خاصّة أنّ وسائل الإعلام تنتقدنا، بمبرر أو بغير مبرر. ولم أكن مستعداً لأن أجعل التشاؤم يصل إلى حدّ فقدان الفاعلية. يمكن أن لا أكون قد فزتُ بمسابقة الرجل الأكثر شعبية، ولكن، وكما اقترح أولادي، فإن حذائي الصحراوي قد شجعني لأن أبدأ رفس قفا أحدهم.

"من الأفضل أن تنظر إلى هذا، سيدي،" قال مساعدي العسكري، الكولونيل سكوتي نورود.. كانت الساعة السادسة والربع، من صباح اليوم التالي، الأربعاء، ١٤ أيار. ناولني نسخة مطبوعة عن الإنترنت لمقالة في صحيفة نيويورك تايمز.

"لتذهب المقالة إلى الجحيم،" قلت، وقرأتُ العنوان بصوت عالٍ. "سياسة جديدة في العراق تخوّل الجنود الأمريكيين إطلاق النار على من يقومون بأعمال السلب." طويت الصفحة، ووضعتُ المقال جانباً، على مكتبي. "متى وصلت المقالة، سكوتي؟"

"حوالي السادسة، سيدي."

لابد أن باتريك تيلر، مراسل التايمز، قد أرسل المقالة من بغداد، بعد ظهر الثلاثاء. مصادر تيلر، غير المسمّاة، أقتبست مباشرةً من اجتماع فريق عملي في الليلة الأولى. عدتُ إلى المقالة وقرأتُ المزيد: "سوف يطلقون النار على بعض اللصوص الفارّين، لكي يسري الخبر ويشيع"، كما أن "الهجوم على الممتلكات، وسرقة السيارات والجرائم العنيفة سوف يتم التعامل معها باستخدام القوة،" نقل تيلر عن مصادره.

مشيراً إلى "مسؤولين"، لم يذكر أسماءهم، لفت تيلر الانتباه إلى أنّ "مقاربتي الأكثر تشدداً،" تبدو وكأنها "في جوهر صلاحية السيد بريمر المعطاة من الرئيس بوش لكي ينقذ النصر في العراق من الوقوع في شرك الفوضى" و نوّه إلى مخاطر "احتمال قتل العراقيين الشبان اليائسين، العاطلين عن العمل "...وأخذ مسرّبو الخبر على عاتقهم محاولة توجيه دفة الخطة السياسية التي وضعتها سلطة التحالف المؤقتة. "إجراء آخر متشدّد قال المسؤولون إن السيد بريمر متشوق لإخراجه إلى العلن، هو مرسوم اجتثاث البعث " ...بالرغم من أن المعلومات دقيقة، إلا أنها كانت مرتبطة بسياسة كبرى، ولم أكن بالتأكيد أريد للقادة السياسيين العراقيين، وللمواطنين العاديين أن يسمعوا بها من خلال قناة الجزيرة، نقلاً عن صحيفة نيويورك تايمز.

وبدأت طاحونة الشائعات المنهمكة داخل القصر تنقل أنّ غارنر سوف يغادر في وقت أبكر مما كان متوقعاً، وسوف يأخذ معه العديدَ من أعوانه المخلصين. كنت أريد خبرة جي في الأمور اللّوجستية، لكنني لن أندم لحظة واحدة على ذهاب أولئك المسربين للأخبار.

يتبع

افتتاح مركز المرأة العراقي بمناسبة يوم المرأة العالمي في ٨ آذار ٢٠٠٤